٣ — ابن سينا

هو أبو على الحسين بن عبد الله بن سيناء ، الملقب بالشيخ الرئيس ، أشهر أطباء العرب ، ومن أعظم فلاسفتهم ، فارسى الأصل ، نشأ فى ولاية ما وراء الأنهر

كان أبوه من أهل بلخ ، طاب له المقام فى بخارى لعهد نوح بن منصور ، أحد امراء الأسرة السامانية ، عين والياً لخرميتان احدى عواصم بخارى . تزوج عبد الله والد على من امرأة من افشنا ، وهو بلد صغير على مقربة من خرميتان ، فانجبت له به عليا فى شهر صفر عام ٣٧٠ للهجرة (اغسطس سنة ٩٨٠) و بعد ميلاده ببضع سنين عاد به أبوه الى بخارى وعنى بتربيته

ذكر ابن سينا عن تهذيبه انه فى العاشرة من عمره كان قد استظهر القرآن وألم بجزء صالح من العلوم الدينية ، ومبادئ الشريعة الغراء ، وعلم النحو . وكان الناس يعجبون بحفظه و بذكائه السابق لأوانه ، وكان أبوه يضيف فى منزله عالماً اسمه عبد الله ناتيلى ، فوكل اليه تهذيب ولده ، ففاق التلميذ استاذه وانقطع علىٌّ للدرس بمفرده ، فخاض غمار الرياضيات والطبيعيات والمنطق وما وراء الطبيعة ، ثم اكب بعد ذلك على درس فن الطب على استاذ مسيحى اسمه عيسى بن يحيى .

ولم يبلغ علىٌّ السادسة أو السابعة عشرة من عمره حتى طبقت شهرته الخافقين لحذقه فى الطب ، وحتى دعاه نوح بن منصور أمير بخارى لعيادته فى مرض ألم به ، وأعيى حيل الأطباء ، فعالجه الى أن عوفى فانبسط له واسبغ عليه ذيل الرضى وأسبل عليه ثوب النعمة وفتح له خزانة كتبه فوجد بها الطبيب الحكيم خير مجال لرغبة الدرس وأرحب ميدان لطلاب العلم واستقى من تلك الينابيع العذبة ما شاء اقباله عليها

وقد حدث ان احرقت خزانة الكتب ، فاتهم ابن سينا بأنه محرقها ، رغبة فى أن يتفرد بما وعته من الحكمة ، وخشية أن ينتفع بما حوته سواه !

وقد مات الأمير نوح بعد ذلك بقليل فى شهر رجب عام ٣٨٧ هجرية (يوليه سنة ٩٩٧) وقد هوى بموته نجم اسرته أو كاد

قضى والد على وهو فى الثانية والعشرين من عمره ، وكان يعينه فى أعمال الدولة حتى اذا فرغ منها عكف على تأليف بعض الكتب والرسائل، كان يسأله فى وضعها لفيف من الأكابر والأعيان . فلما ان نكب فى والده ثقلت عليه الاقامة فى بخارى فرحل عنها وسكن جرجان و بعض مدن خوارزم وخراسان وداغستان وهى احدى البلاد الدانية من بحر قزبين . وقد أصابه فى تلك البلاد داء عضال ، ثم عاد الى جرجان فتعرف برجل كبير القدر اسمه ابو محمد الشيرازى ، فأهدى اليه داراً فانتفع بها لالقاء الدروس للطلاب . واذ ذاك بدأ ابن سينا بوضع كتاب قانون الطب ، وهو المؤلف الذى خلد ذكره ، واكسبه صيتاً بعيداً فى أوروبا حيث بقى قانون ابن سينا هو أساس العلوم الطبية وعمدة الطالبين لها خلال قرون متتالية .

وكانت المشاغب السياسية تلجئه الى تغيير موطنه ، وفى هذا من قطع العمل والتشويش على العلم ما فيه الى أن استوزره شمس الدولة أمير همذان ، بيد أن وزارته لم ترض الجند فأسروه وطلبوا قتله فأغضب صنعهم شمس الدولة وانقذ ابن سينا من أيديهم بعد جهد جهيد . وقد اختفى ابن سينا عن الأعين حيناً ثم عاد الى حاشية الأمير يتعهده منذ أصابه داء فى الأحشاء وشرع يدون أجزاء شتى من كتاب الشفاء .

وكان فى كل عشية يلقى على تلاميذه دروساً فى الفلسفة والطب . ويحكى عنه أنهُ كان يحب الأنس والأطعمة الفاخرة ، فكان كل ليلة بعد نهاية الدرس يستقدم العازفين ، ويعد الموائد الممتعة ، ويقضى كذلك هزيعاً من الليل مع تلاميذه واحبابه

ولما أن مات شمس الدولة وتولى الامارة ابنه بعده لم ترقه حال ابن سينا فاعرض عنه فحقد عليه الشيخ الرئيس وكاتب فى السر عدوه ومناظره علاء الدولة أمير اصبهان فكشف أمره ، وعوقب على فعلته بالسجن فى حصن ، و بعد سنين كذلك فاز فى الفرار الى اصبهان فرحب به علاء الدولة ، وكان يصحبه فى معظم غزواته وأسفاره .

وقد افنت تلك المناعب بنيته وزادته ضعفاً على الذى لحقه من الافراط فى العمل واللهو. فأصابه داء فى الاحشاء فتناول دواء شديداً سريع الأثر، فاشتدت علته وقد بلغت آلامهُ نهايتها فى غزوة اصطحبه فيها علاء الدين الى همذان

ولما أن رأى ابن سينا دنو أجله تاب الى الله توبة نصوحاً وتصدق بأغلى وأثمن ما كان يملك وانقطع الى العبادة وأعد للقاء الله عدته وقضى الى رحمة الله فى شهر رمضان المبارك عام ٤٢٨ للهجرة (يوليه سنة ١٠٣٧) وهو يبلغ سبعة وخمسين عاماً. وقد دون تلميذه الجرجانى ترجمته وهو المعروف عند الافرنج باسم (جورجوروس) ونقلت هذه الترجمة الى اللغة اللاتينية وافتتحت بها عدة من مؤلفات الشيخ الرئيس التى نشرت فى أوروبا

كان ابن سينا من أعجب العبقريين، وأبلغ الكتـــاب. فانه خلال قيامه باعباء المناصب وشد الرحال الى البلاد القصية، وفى مثار الحروب وثنايا الفتن الأهلية تمكن من وضع كتب كثيرة ممتعة يكفى أحدها لتأسيس مجده، ووضعه فى مصاف كبار حكماء المشرق. وقد دون اكثر من مائة كتاب تتباين فى الاتقان ولكنها تشهد بفضله وبالمامه بسائر علوم عصره، واكبابه على العمل فى أحرج الأحوال. ومعظم مؤلفاته لا تزال محفوظة الى يومنا هذا، وكثير من كتبه الكبرى كالقانون والشفاء ترجمت الى اللاتينية وطبعت عدة مرات وسنقصر الكلام باسهاب فى هذه العجالة على الشفاء والنجدة

كتاب الشفاء وهو من موسوعات العلوم ودوائر المعارف فى ثمانية عشر مجلد محفوظة منها نسخة كاملة بمدرسة اكسفورد الجامعة. والنجدة موجز الشفاء، وضعه الرئيس رغبة فى ارضاء بعض اصفيائه وقد طبع الأصل العربى بعد القانون فى رومة عام ١٥٩٣ وهو فى ثلاثة أقسام المنطق والطبيعيات وما وراء الطبيعة وليس يوجد فيه القسم الخاص بالعلوم الرياضية التى أشار اليها المؤلف فى فاتحة الكتاب وقال بضرورة ذكرها فى الوسط بين الطبيعيات، وعلم ما وراء الطبيعة وقد طبع هذان الكتابان كاملين ومتفرقين عدة مرات باللغة اللاتينية منها مجموعة طبعت فى البندقية عام ١٤٩٥ تشمل

(١) المنطق
(٢) الطبيعيات (مقتبسة من كتاب الشفاء)
(٣) السماء والعالم
(٤) الروح
(٥) حياة الحيوان
(٦) على العقل
(٧) فلسفة الفارابى على العقل
(٨) الفلسفة الأولى

ونقل « نافيه » منطق ابن سينا الى الفرنسوية ونشره بباريس عام ١٦٥٨ كذلك طبع العلامة سمولدرز ارجوزة منطقية لابن سينا فى « مجموعة الفلسفة العربية » أما فلسفة ابن سينا فهى بالضرورة كفلسفة غيره من أتباع أرسطو دع عنك ما تحويه، عدا مبادئ المعلم الأغريقى ، من التعاليم الأخرى التى لم تخل منها حكمة سواه من فلاسفة العرب

ذكر ابن طفيل فى كتابه « حى بن يقظان » أن ابن سينا قال فى فاتحة الشفاء أن الحقيقة فى رأيه ليست فى هذا التصنيف وان من يريدها فليلتمسها فى كتاب الحكمة المشرقية بيد أن هذا الكتاب لم يصل الينا ، وقد عرفنا ممن وقع لهم ان موضوعه ربما كان فى تعليم رأى وحدة الوجود على الطريقة الشرقية . ولذا يجب علينا أن نقنع بما وصل الينا من كتبه الأخرى التى ظهر فيها بمظهر الاستقلال الفكرى حيناً وحيناً بمظهر المقلدين الناقلين . على أنه اعترف بأنه اعتمد فى منطقه كثيراً على مؤلفات الفارابى ، فان من يقرأ كتب ابن سينا يرى رابطة متينة فى التآليف و يرى رغبة الشيخ ظاهرة فى تنسيق العلوم الفلسفية وترتيبها بدقة شديدة وردها الى سلسلة واحدة لا بد منها . (راجع كتاب الملل والنحل للشهرستانى النسخة العربية ص ٣٤٨ و ٤٢٩)

وقد قسم العلوم فى الشفاء الى ثلاثة أقسام :

(١) العلوم العالية أى التى لا علاقة لها بالمادة . وهى الحكمة الأولى أو ما وراء الطبيعة

(٢) العلوم الدنيا وهى الخاصة بالمادة وهى الطبيعيات وما يتبعها وهى العلوم الخاصة بكل ما كان له مادة ظاهرة وما ينشأ عنها

(٣) العلوم الوسطى وهى التى تتعلق تارة بمـا وراء الطبيعة وطوراً بالمادة وهى الرياضيات

وقد عدها كذلك لأنها بين بين ، فان علم الحساب مثلاً خاص بما لا علاقة له بالمادة بطبيعته ولكنه يتصل بها بمقتضى الحال. وعلم الهندسة خاص بالموجودات التى يمكن تخيلها بدون اتصالها بالمادة ومع أنها لا وجود لها فى الحس فان لا قوام لها إلاَّ بالأشياء المرئية

أما الموسيقى وفنون الآلات والعلوم البصرية فان علاقتها بالمادة قريبة إلاَّ أن نسبة رفعة بعضها عن البعض راجعة الى دنوها من الطبيعيات . وقد تكون العلوم فى بعض الأحوال مشتبكة لا يمكن فصلها كما هى الحال فى علم الفلك فانه علم رياضى ولكنه خاص بأرقى طبقة من طبقات العلم الطبيعى

وان هذا التقسيم لدليل قاطع على مقدار ما استفاده ابن سينا من كتب أرسطو ويرى الخبير من الامعان فى مؤلفات ابن سينا أن التلميذ فاق استاذه فى فحص العلوم وتبيينها .

فان أرسطو قسم الفلسفة النظرية الى ثلاثة أقسام : الرياضيات ، والطبيعيات ، وعلم اللاهوت . وبذا جعل الرياضيات نوعاً من الفلسفة ونسب الى الرياضيات فنوناً تبحث فى غير المادة (فيما ليس متحركاً ومنفصلاً عن المادة) ثم ذكر علوماً أخرى كالفلك وعلم المرئيات وفن الانسجام ونسبها الى الطبيعيات ولكنه لم يحط بتقسيم بلغ من الدقة والجلاء ما بلغه تقسيم ابن سينا للعلوم (راجع كتاب ما وراء الطبيعة لارسطو الكتاب السادس الفصل الأول والطبيعيات له أيضاً الكتاب ٢ فصل ٢) . ولم تكن زيادة البيان التى إمتاز بها ابن سينا قاصرة على تقسيم العلوم . بل كان ذلك يشمل النظريات الفلسفية فان ابن سينا قال كسابقيه فى نظرية الكائن بالممكن والضرورى ثم أضاف الى ذلك آراء خاصة بها ينبغى الوقوف عليها . فانه قسم الكائن الى ثلاثة أقسام : ما كان ممكناً فقط وفى هذا القسم ادخل سائر الكائنات التى تولد وتموت . القسم الثانى ما كان ممكناً

بذاته وضروريًا بسبب خارج عنه . أو بعبارة أخرى كل كائن قابل للتولد والفناء (ما عدا السبب الأول مثل الدوائر والأفلاك) والعقول التى هى بذاتها كائنات ممكنة ولا تصير واجبة إلاَّ باتصالها بالسبب الأول ، أما القسم الثالث فهو قاصر على ما كان واجبًا بذاته وهو الله . يقول ابن سينا وتقرر هذا الكائن الفرد وحده باتحاد الوجود والوحدة والروح . أما فى الكائنات التى سبق ذكرها فى القسمين الأولين فان الوحدة والوجود هما حادثان طرأا على روح الأشياء واتصلا بها

وقد عارض ابن رشد هذا التقسيم فى أماكن شتى من مؤلفاته وأنتقده وأفرد له رسالة على حدة لا يوجد منها الآن إلاَّ نسخة عبرية بالمكتبة الوطنية بباريس . يقول ابن رشد أن ما كان واجبًا بسبب خارج عنه لا يمكن أن يكون ممكنًا بذاته إلاَّ اذا هلك السبب الخارج وهذا مستحيل فيما فرضه ابن سينا لأن السبب الأول واجب الوجود وليس عرضة للهلاك. ثم أن ابن رشد يرد بشدة على ما زعمه ابن سينا من أن الوجود والوحدة ليسا سوى عارضين يطرآن على حقيقة الأشياء .

ويقول إن ابن سينا خلط الوحدة العددية التى هى لا شك طارئة بالوحدة المطلقة التى هى وروح الأشياء واحد لايتعدد وبذا لا تنفصل عنه (أى عن ذلك الروح) ثم ذكر ابن رشد أن ابن سينا قد قال فى ذلك بآراء المتكلمين الذين يعتبرون الكون الأرضى بما فيه فى دائرة الكائنات الممكنة ويعتقدون أنها قابلة للتغير . إنما تفوق ابن سينا عليهم فى التمييز بين الممكن والواجب لإثبات وجود كائن روحى (هيولانى)

وبعد أن أظهر ابن رشد خطأ ابن سينا فى تقسيمه قال « وقد رأينا فى هذا الزمن كثيرين من اتباع ابن سينا يفسرون رأيه ليحوروه فيقولون أن بن سينا لم يقل بوجود مادة منفصلة بذاتها وهذا فى زعمهم ناشئ عن كيفية الشرح التى استعملها ابن سينا فى عدة مواضع فى الكلام على واجب الوجود . وهذا أيضًا هو أساس فلسفته التى وضعها فى كتاب الحكمة المشرقية ، وقد أطلق عليها هذا الاسم لأنه استعارها من المشارقة الذين يوحدون بين الله وبين الدوائر السموية (الأفلاك) وهذا الرأى منطبق على رأى ابن سينا » اهـ كلام ابن رشد

أن فكرة وحدة الوجود الشرقية هذه لم تترك أثراً فى كتابات ابن سينا التى تربطه بالمشائين وهى غاية بحثنا فى هذه الرسالة

تساهل ابن سينا مع المتكلمين كما رأيت ولكنه لم يتردد فى القول مع الفلاسفة بأزلية العالم التى تختلف عن أزلية الله بأن لها سبباً خاصاً وقائماً بها (وهذا السبب لا يقع فى الزمان) أما الله فأزلى الوجود بذاته

أن ابن سينا يقول وغيره من الفلاسفة أن السبب الأول لكونه الوحدة المطلقة لا يمكن أن يكون له أثر مباشر سوى الوحدة ، و يقول فى البرهان على ذلك أنه ثبت ان الكائن الواجب الوجود بذاته هو واحد فى كل صفاته فلا يمكن أن يصدر عنه إلاَّ كائن واحد . لأنه اذا صدر عنه كائنان مختلفان حقيقة فانهما لا يصدران الاّ عن جهتين مختلفتين من روحه . فاذا كانت هاتان الجهتان متصلتين بروحه ينتج عن ذلك أن ذلك الروح قابل للانقسام ، وقد أثبتنا استحالة ذلك وخطأه (راجع ما وراء الطبيعة لابن سينا الكتاب التاسع الفصل الرابع والشهرستانى ص ٨٣٠ والغزالى مقاصد الفلاسفة)

نقول واذا صدق قول ابن سينا فى أنه لا يصدر عن الواحد الاّ ما كانت صفته الأولية الوحدة فكيف نعلل صدور العالم عن الله وهو مجموع كائنات متعددة . للجواب على هذا فرض ابن سينا أن حركة الدوائر لم تصدر عن الله مباشرة ومن المعلوم عن رأى المشائين أن أثر علة العلل فى الكون الأرضى ظاهر فى الحركة التى تشكل المادة . انما يصدر عن الله العقل الأول ، أى عقل الدائرة المحيطة التى تسبب حركة الدائرة الثانية ، وهذه الدائرة المحيطة الأولى وان كانت صادرة عن الكائن الفرد فانها مركبة لأن بعقلها غايتين ، العقل الأول والدائرة ذاتها . يقول ابن رشد وهذا خطأ فى رأى المشائين أنفسهم لأن العاقل والمعقول هما واحد فى العقل الانسانى وهما كذلك بقوة أشد فى العقول المنفصلة (عن المادة) ثم يقول ابن رشد أن هذا الرأى ليس لأرسطو ، انما استفاده الفارابى وابن سينا من بعض الحكماء الأقدمين الذين قالوا بأن

الخير والشر خاصة والاضداد عامة لا تصدر عن سبب واحد .

واذا عممنا هذا الفرض وصلنا الى وضع قاعدة مفردة ، وهى أنه لا يصدر مباشرة وبلا وسيط عن السبب البسيط المفرد الاَّ أثر فرد . وقد أظهر ابن رشد أنهم أخطأوا فى نسبة هذا الرأى الى ارسطو وقد نشأ ذلك عن سوء فهم المعنى المراد لفكرة الوحدة فى قول هـذا الحكيم عند ما وصف الكون بأنه وحدة أو مجموع حيوى صادر عن سبب أول مفرد .

ولم يتردد ميمونيد الذى يرجع سائر نظريات ابن سينا الى آراء المعلم ارسطو فى نسبة هذا الفرض الى سواه (راجع كتاب مرشد الحيران تأليف ميمونيد القسم الثانى الباب الثانى والعشرين) وقد انتشرت هذه الهفوة فى المدارس المسيحية خلال القرون الوسطى ، ومن أثر ذلك أن نسب البرت الكبير هـذا الفرض الى ارسطو وسائر تلاميذه ، واتباع تعليمه ما عدا حكيماً واحداً قال انه يعتقد بصدور شيئين من وحدة بسيطة ، هما المادة العامة والشكل العام .

وكان ابن سينا يقول كغيره من الفلاسفة بامتداد احاطة علم الله بالموجودات العامة لا بالأشياء الخاصة ، والحوادث التى تقع مصادفة ، وينسب الى نفوس الدوائر العلم بالجزئيات ، وانه بواسطة تلك النفوس يتصل علم الله بالموجودات الأرضية ، ويفرض ابن سينا أن لنفوس الدوائر خاصة التخيل التى تلم بأشياء لا حد لها ، لأنه لا يقدر أن لا ينسب العلم بالحوادث التى تقع مصادفة ، والأشياء المفردة إما الى عقول الدوائر ، وإما الى العقل الالهى . ان الأشياء الخاصة المفردة الأرضية لها رد فعل على علتها القريبة وتخترق صورها الدوائر بالتدريج فتتصل شيئاً فشيئاً من علة الى علة الى أن تصل الى السبب الأول ، وقد أثبت لنا ابن رشد ان هذا الفرض خاص بابن سينا ، وقد رد ابن رشد عليه

يقول ابن رشد ان الخيال متصل بالحواس ومعتمد عليها ، وحيث ان الحواس لا يمكن نسبتها الى الأجرام السموية حينئذ لا تمكن نسبة الخيال اليها ، وهو يبيح أن

ينسب الادراك للأجرام السموية ، وطبيعة هذا الادراك كطبيعة ادراك المتفنن الذى يبدع تأليفاً أو صورة أو عمارة أو تمثالاً قبل ابرازها من حيز الفكر الى حيز الوجود .

ولكن هذا الادراك أو الخيال يلم بالأمر المقصود انجازه الماماً عاماً أو نوعياً لا الماماً تفصيلياً ، لذا لو فرضنا أن للأجرام السموية خيالاً ، فلا يمكن أن يكون لهذا الخيال علاقة بالموجودات الخاصة الأرضية ، ويظهر مما سبق فى الأمثال والإيضاح ، أن ابن سينا أراد بفرضه أن يقرب بين السبب الأول وبين الموجودات الأرضية ، وقد حاول هذا التقريب بإيجاد حلقات متتابعة يمكن بواسطتها اتصال القوة المجردة بسائر الموجودات المادية ، ولا يخفى أن ابن سينا حاول فى مواطن شتى أن يحيد عن اتباع آراء ارسطو ، ولكن ابن رشد كان على العكس لا يريد الا تثبيت سلطة ارسطو الفلسفية ومناصرة آرائه ومبادئه وتحقيق فكره . لذا لم يعلق أهمية كبرى على ما كان خاصاً بابن سينا من النظريات ، وكثيراً ما اشتهر امتهانه لها (راجع مرشد الحيران الجزء ١ ص ٢٣١ ملحوظة ١٠ تأليف ميموينـد) أما نظرية النفس فقد عالجها ابن سينا بعناية فائقة ، وقد نقل بالدقة تقسيم ارسطو للمواهب النفسية ونظرية العقل المؤثر والعقل المتأثر وأضاف الى آراء ارسطو ونظرياته شروحاً وملحوظات ذات قيمة ، فقد تبعه حكماء العرب فى التقسيم القياسى لمواهب النفس البشرية الذى وضعه وسار على سننهم فلاسفة القرون الوسطى المدرسيون وبعض الحكماء المحدثين وهذا هو التقسيم القياسى الذى وضعه ابن سينا

(١) الخواص الظاهرة أو الحواس الخمس
(٢) الخواص الباطنة
(٣) الخواص المحركة
(٤) الخواص العاقلة

وقد قسم كل خاصة منها الى أقسام أدق فذكر القوة الوهمية فى الفصل الثالث من القسم الثانى وبها يكوّن الحيوان حكمه كما يفعل الانسان بقوة الفكر أو التأمل فانه بالوهم تعلم الشاة أن صغارها فى حاجة الى حنانها وانهن فى خطر من الذئب

وكان الفلاسفة السابقون على ابن سينا يخلطون بين تلك القوة ، و بين القوة المخيلة ، ومن خواص ابن سينا أنه جعل مقر خواص النفس فى تجاويف المخ الثلاثة

أما فيما يتعلق بصلة العقل المؤثر بالنفس البشرية فلم يحاول ابن سينا أن يقر رأياً وهو كسائر حكماء العرب يرى فى تلك الصلة أسمى ما تتطلع اليه النفس البشرية ؛ لذا ينصح للنفوس بالمساعى ولكنه يفضل قهر المادة وتطهير النفس من أدرانها حتى تصير وعاء نقياً جديراً بتلقى الالهـام الالهى (راجع كتاب ما وراء الطبيعة الكتاب التاسع الفصل السابع)

يقول ابن سينا « أما النفس العاقلة فكمالها الحقيقى خفى ومصيرها أن تكون عالماً عقلياً تنبسط فيه صور الموجودات وترتيبها والخير العام الذى يخترق الأشياء عامة وهو قاعدة الكون الأولى ، ثم المواد الروحيـة العالية ، ثم النفوس المتصلة بالأجساد ، ثم الأجرام السامية ، وما لها من الخواص والحركات ، وهكذا الى أن تصير النفس عالماً عاقلاً مماثلاً للعالم العقلى بأجمعه عارفة بأتم الأشياء . كالجمال التام ، والخير التام ، والمجد التام فتتصل به وتصير كما ذكرت مادة . ولكننا ما دمنا فى هـذا العالم الأرضى وفى هذه الأجساد فلا نستطيع أن نشعر بتلك السعادة لمـا يحيط بنا من الشهوات فنحن لا نبحث عن تلك السعادة الكاملة ولا نشعر بأننا قادرون أن نحصل عليها الاّ اذا تخلصنا مما يعلقنا بالشهوات وأنواع الفتنة والهوى . حينئذ نستطيع أن نتخيل شيئاً من تلك السعادة فى نفوسنا شريطة أن تتبدد الشكوك وأن تستنير بصائرنا ويظهر أن الانسان لا يقدر على الخلاص من هذا العالم وما يحيط به الا اذا تعلق بأهداب العالم العقلى الذى ذكرت فتجذبه رغبته اليه وتصونه عن النظر الى ما ورائه وهذه السعادة لاتنال الا بممارسة الفضائل والكمالات» ويقول فى مكان آخر« يوجد رجال ذووطبيعة طاهرة اكتسبت نفوسهم قوة بالطهر وبتعلقها بقوانين العالم العقلى . لذا هم ينالون الالهام ويوحى اليهم العقل المؤثر فى سائر الشؤون ويوجد غيرهم لا حاجة بهم الى الدرس للاتصال بالعقل المؤثر لأنهم يعلمون كل شىء بدون واسطة . هؤلاء هم أصحاب العقل

المقدس . وأن هذا العقل لمن السمو بحيث لا يمكن لكل البشر أن ينالهم منه نصيب »
(راجع الشهرستانى ص ٤٢٨ نسخة ألمانية جزء ٢ ص ٣٣٢ — ٣٣١ فى آخر تحليل طبيعيات ابن سينا)

و يرى القارئ مما تقدم من قول الرئيس أنه يقصد بأصحاب العقل المقدس الأنبياء الذين يحظون بالوحى الربانى . وهو قائل بهِ البتة ما دام يعترف بأن بين النفس البشرية والعقل الأول علاقة طبيعية وما دام الانسان ليس أبداً فى حاجة الى الحصول على العقل المكتسب بالدرس

يتبين لك مما سبق أن الشرائع السماوية والقوانين الأدبية تشغل مكاناً فسيحاً فى مبادئ ابن سينا وأنه بعيد بمراحل فى لغته الطاهرة عن المبادئ الحرة المخالفة للدين التى شرحها وقال بها ابن رشد . وسيرى القارئ فيما يلى مقدار انقياد ابن رشد الى رأيه فى العقل . ويقول ابن سينا ببقاء وحدة النفس البشرية التى لها مادة منفصلة عن الجسد ، وأن هذه المادة محافظة على ذاتها ، ولكنها غير متعلقة بالمكان ، أو الزمان (راجع مرشد الحيران جزء ١ ص ٤٣٣ ملحوظة ٢)

ان فى كل فرع من فروع العلوم الفلسفية آراء جديدة أضافها ابن سينا الى فلسفة ارسطو ولكن هذه الفلسفة لم تتغير فى مجموعها بما أضافه الرئيس تغيراً كبيراً .

و بالجملة فان ابن سينا أخرج سائر أجزاء فلسفة ارسطو بنظام تام ، وتسلسل محكم ، ووسع نطاقها بمذهب الافلاطونية الحديثة (نيو پلاتونيزم)

وهو لا ريب معدود اكبر أساتذة فلسفة ارسطو فى القرون الوسطى . ومع أنه تساهل كثيراً اكراماً لمبادئ الاسلام فانه لم يحدث تغييراً كبيراً فى مجموع فلسفة ارسطو التى لا يمكن اتفاقها مع الدين الحنيف . ولا ريب فى أن الغزالى قصد اليه بكتابه « تهافت الفلاسفة » .

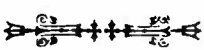

﴿ ايضاح عن ابن سينا ﴾

أن ما ذكرناه بالايجاز عن حياة الشيخ الرئيس، من الشؤون العادية يدل دلالة سطحية على حياته ويحار المؤرخ اذا حاول الوصول الى علم يقيني عن نفسية ابن سينا وأخلاقه ويظهر للواقف على أخباره أن أبا عبيد الجرجاني وهو صاحبه الذى نقل عنه لم يدون ما يلقى شعاعاً من النور على تلك الناحية من حياة الرئيس ولكن المدقق قد يصل بعد طول الامعان الى بصيص من الضياء . وقد جاءت النبذ الدالة على خلقه وعقله عرضاً لا قصداً من ذلك أنه نشأ منذ نعومة أظفاره مستقلا برأيه وترعرع ونما وهو يحافظ على ذلك الاستقلال بالرأى الذى هو الجوهر فى أخلاق الرجال

فقد حكى أن أباه وأخاه كانا من الاسماعيلية وانه سمع منهما كلاماً فى النفس والعقل على طريقة برضاها أبوه وأخوه ولا يقبلها عقله ولا ترتاح اليها نفسه فلم يقبل عليها ونبا عنها ، وهذا الاستقلال فى الرأى والاعتداد بالنفس دليل قوة الفكر والارادة . حقاً أن الاعتداد بالنفس من أدلة الاعجاب بها وفى الاعجاب بالنفس عيوب ومحاسن ، ويظهر لنا أن ابن سينا استفاد باعجابه بنفسه سمواً فى خلقه وعلواً فى مقاصده واقتراباً من المثل الأعلى ولم يخف علينا ذلك فقد وصف نفسه بالتقدم فى العلم والبراعة فيه بكلام ملؤه الاعجاب بالذات

ويظهر من أخباره أنه كان عبقرياً ممتازاً قادراً على الالمام بالعلوم والمعارف واستنباط الأفكار القوية ببساطة وبدون تكليف ظاهر أو خفى فكان عقله مخلوقاً للفلسفة . فقد سبقه فى كل الأمم فلاسفة وصلوا الى الحقيقة بعد الجهد والتعب وبعد التألم والمعاناة فى سبيل البحث عنها ولكن ابن سينا كان فذاً فى عبقريته حقاً وكان ذكاؤه من النوع الذى يظهر قبل أوان ظهوره عند أشباهه فى السن والمواهب فقد أتم ابن سينا تعليمه ودراسته فى أواخر العقد الثانى من عمره الحافل بالعجائب وكان على قمة الفتوة مالكا زمام العلوم المعروفة لعهده يعيها ويحفظها ويحللها ثم اندمجت تلك العلوم فى نفسه فنضجت النفس وتجلت معرفتها أجمل تجلى وليس لدينا دليل على أنه زاد على عامه شيئاً بكر السنين ومرها ولكنه أحسن استعمال الأدوات التى حباه الله إياها فلما فرغ من تحصيل العلوم بأسرها فى مقتبل الشباب لم يزد عليها شيئاً ولم يتجدد له علم ولكن فطرته السليمة وبصيرته المنورة وعقله الجبار وإرادته القوية تضافرت كلها وتآزرت على المحافظة فيما بقى من عمره على الأسس العلمية التى ركزت فى نفسه فى عنفوان الفتوة والتى صرف جهده فى صقلها وتهذيبها .

ومما يؤيد قولنا بأن عقل ابن سينا كان مخلوقاً للفلسفة ، وأن ممارسة العقليات كانت لديه أسهل منها لدى غيره ، أنه بعد تفوقه فى سرعة احراز العلوم ، وامتلاك ناصيتها بقليل عناء ، صار التأليف والتصنيف من أبسط الأمور وأسهلها وأسرعها لديه ، فلم يكن من الحكماء الذين يطيلون النظر فيما يكتبون ، ثم اذا هم دونوا شيئاً يصرفون وقتاً فى تحويره وتبديله بعد نقده وتمحيصه ، بل كان ابن سينا فياضاً بحكمته وفلسفته يثبتها ، ولا يمحو ما أثبت ، ولا يتردد فى تنقيح أو تصحيح ، ولا يشك فى صحة ما كتب . ودليلنا على ذلك كثرة الكتب التى ألفها ابن سينا ، وكلها قيمة ممتعة ، وقد ألف بعضها وهو فى نضارة العمر يترقرق فى وجهه ماء الشباب ، على أنه لم يبلغ اكثر من ثلاث وخمسين سنة على الأقل أو ثمان وخمسين سنة على الاكثر

ينتج مما تقدم أن الشيخ كان من أظهر صفاته كثرة العمل وسهولته ، وسرعة اتمامه وكان يشبه جوته الفيلسوف الألمانى من بعض وجوه ، فان جوته ألف رواية «فوست» فى جزئين بين الاول والثانى منهما نحو ستين عاماً ، كذلك ابن سينا ألف الجزء الاول من الشفاء مذكان فى معية الأمير شمس الدولة ، وما زال يوالى التأليف فيه فى فترات متباعدة حتى أتمه وهو فى معية الامير علاء الدولة . وهذا دليل على انه رضى عما ألفه فى شبابه بعد أن بلغ أشده ، وثبتت فى الحكمة قدمه . كذلك كانت حال «جوته» وكتابه الخالد « فوست » ، وكذلك كان كتاب الشفاء للرئيس أوسع وأمتع ما وضعه فى الحكمة .

أما عن عقيدة ابن سينا فقد وردت نصوص تدعو للتقول والظن ، ولكن الاخبار الصادقة الصحيحة المروية عن الجرجانى الثقة وغيره ، مجمعة على أن الشيخ الرئيس كان اذا أشكلت عليه معضلة ، توضأ وقصد المسجد الجامع وصلى ودعا الله أن يسهلها عليه ، ويفتح مغلقها بين يديه ، وهذا دليل على العاطفة الدينية القوية فى نفس ابن سينا . ويصح لنا أن نقول إن ايمانه كان جزءاً من عبقريته ، وان اعتقاده بواجب الوجود كان من أقوى أسباب ظهور عبقريته

أما ما رواه الجرجانى من أن الرئيس كان شديد القوى كلها وأن قوة الحب كانت لديه أقوى وأغلب ، وأن مظاهر تلك القوة المعنوية والمادية جذبت الشيخ اليها ، واستدعت منه جهوداً أثرت فى مزاجه ، وكانت من أسباب علته واشتداد وطأتها عليه ، فقد كان

هذا صحيحاً ، وكانت هذه الصفات موضع العجب لدى الباحثين ، ولكن منذ ظهر العلامة «فرويد» واستوفى النظر فيما بين قوة الحب الجنسى والمواهب العقلية، فقد أصبحت دراسة تلك العاطفة القوية لدى العبقريين، من أهم الوسائل للوقوف على كثير من خفايا نفوسهم وأسرار حياتهم العقلية والقلبية ، وهذه الاشياء التى ذكرت تمييزاً فى تاريخ الفلاسفة ، أصبحت ذات شأن كبير فى نظر علماء النفس وتحليل قواها ومواهبها . وصار هذا البحث نفسه علماً قائماً بذاته اسمه (Psychoanalyse)